إعلان الرضا
عبادة ودعاء

obeikandi.com

obeikandl.com

إعلانُ الرِّضَا

عبادةٌ ودعاء

« رَضِيتُ باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ ديناً ، وبمحمدٍ ﷺ نَبِيًّا وَرَسُولاً ».

هكذا يكونُ إعلان **الرِّضَا** كَما علّمنا رسولُ الله ﷺ.

فعن أَبِي سَلاَّمٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْه خادمِ رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ قال:سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

« مَنْ قَالَ إِذَا أَصْبَحَ وَإِذَا أَمْسَى: رَضِينَا باللَّهِ رَبًّا، وَبالإِسْلاَمِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً، إِلاَّ كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ ».[1]

ومَن أحسن التدبر عَرَفَ كيف يكون تحقيق الرِّضا شاملاً كاملاً، كما بيَّنه رسولُ الله ﷺ.

إذْ لا يكون راضياً باللهِ مَن لم يَرْض بما رَضِيَهُ لَهُ، حيث قال:

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَـٰمَ دِينًا ﴾.[2]

فإعلانُ **الرِّضَا** بالإسلام إعلانٌ **بالرضا** عن الله الذي شرع لنا من الدِّينِ ما وصَّى به الرسلَ جميعاً، وأمرهم أن يُقيموا الدِّينَ ولا يتفرَّقوا فيه.

ولا يكون مؤمناً باللهِ، ولا راضياً به، مَنْ لم يكن حُبُّه لِمَن أرسله

---

(1) أبو داود: كتاب الأدب.

(2) المائدة: ٣.

أعظم من حُبِّه لنفسه ومالِه والناسِ أجمعين.

فإعلانُ الرِّضا بخاتم المرسلين ﷺ إعلانٌ **بالرضا** عن الله الذي أرسل نبيَّه بالهُدى ودينِ الحق.

إعلانٌ كاملٌ شاملٌ، لا يُقْبَلُ إيمانُ مؤمنٍ إلاّ به، ولا يصحُّ إلا بالتسليم له.

﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾.[1]

وإعلانُ الرِّضا ـ على هذا النحو الشامل الكامل ـ لا يصفو إلاّ بابتلائه وتمحيصه في مُعْتَرَكِ الحياة.

ومن أجل ذلك كانت مرحلةُ الحياة الدنيا مرحلة ابتلاءٍ وامتحان.

ومن سُنَنِ الله في خَلْقِهِ أنَّ الناس لا يُترَكون أن يقولوا « آمَنَّا » وهُم لا يُفتَنُون، فلابُدَّ أن يقع في حياتهم ما يُمَيِّزُ صفوفَهم، ويعلم الصادق والكاذب فيهم.

﴿ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾ ﴾.[2]

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾.[3]

فإنَّ الله الذي رَضِينا به رَبّاً ـ وهو رَبُّ كُلِّ شيء ـ قد أرسل رُسُلَهُ

---

(1) النساء: ٦٥.

(2) العنكبوت: ٣.

(3) محمد: ٣١.

بالبيِّنات، وأنزل معهم الكتابَ والميزانَ؛ ليقومَ الناسُ بالقِسط.

ولا يتحقق الرِّضا من الله **والرضا** عنه إلاَّ بإقامة « العَدل » الذي من أجله أرسلَ الرسلَ، وأنزل الكتابَ، وخلقَ السماوات والأرض، وجعل الآخرةَ دارَ جزاءٍ لِمَن أحسنَ أَوْ أَسَاء.

فالعدلُ الذي أمر اللهُ عبادَه المؤمنين بأنْ يكونوا قوَّامِين به، لابُدَّ من حسابٍ وجزاءٍ عليه.

وهو شاملٌ لشئونِ الحياة كُلِّها.

شامل لعَلاقَةِ الإنسان بكل شيء.

عَدْلٌ في علاقة الإنسان مع ربِّه، وذلك بتحقيق ما خُلق الإنسان من أجله.

عَدْلٌ في ذاتِ الإنسان وعلاقته بغَيره.

عَدْلٌ في النيَّةِ والقول والعمل.

عَدْلٌ مع العدوِّ والصَّديق، والقريبِ والبعيد، فلا يَحُولُ بين العدلِ وبين الإنسان حائلٌ من قرابَةٍ أو عداوةٍ.

وذاك ما أمر الله به في قوله:

﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓاْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾ ﴾.[1]

---

(1) النساء: ١٣٥.

وقولِه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾[1].

هكذا يُقامُ العدلُ دونَ نَظَرٍ لقويٍّ أو ضعيف، أو غنيٍّ أو فقير، أو عدوٍّ أو صَديق، أو قريبٍ أو بعيد.

فَعَلى الإنسان الذي يُعْلِنُ رِضَاه عن ربِّه أن يكون حَذِراً من المؤثرات التي تَحُولُ بينه وبين القيام بالقسط الذي يرضاه ربُّه.

مؤثرات أهواء النفس، والْمَيْلُ إلى الوالِدَيْنِ والأقربين، وتفاوت الناس في الغنى والفقر، والقوة والضعف.

﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُواْ ﴾.

فالعطف على الضَّعيف مهما بلغ ضعفُه، وعلى الفقير مهما بلغ فَقْرُه، قد يجعل الإنسانَ يميلُ إلى الضعيف والفقير؛ بدافعٍ من عاطفةٍ، فيحكم لهما دونَ نَظَرٍ لما يجب من تحقيق العدل بعيداً عن المؤثرات الخارجة عنه.

فليكُنْ عطفُك على الفقير بمعاونته، وعلى الضعيف بمساعدته، دونَ خَلْطٍ بين ما يجب من إقامة العدل بينه وبين غيره.

ومؤثرات العداوة التي قد تدفع الناسَ إلى الجَوْرِ والظُّلمِ، وتدعوهم

---

(1) المائدة: ٨.

إلى مجاوزة الحق.

هذه المؤثرات ـ مع تنوعها وكثرتها ـ هي أقوى العوامل في اختبار الإنسان وامتحانه، وبيان ما هو عليه من صِدْقٍ في الرضا عن الله، والوفاء له في القيام بالقسط كما أَمَر.

والنفوسُ التي تعرف ربَّها وتخشاه لا يتغيَّرُ رِضَاهَا عن ربِّها بتغيُّرِ الأحوال، من عُسْرٍ ويُسْرٍ، وشدَّةٍ ورخاءٍ.

لا يتغيَّرُ رِضَاهَا عن الله مهما عَظُمَ الكَرْبُ واشتدَّ.

وهي تعلمُ أن عِظَمَ البلاءِ مِنَّةٌ من الله على مَن يُحبه ويرضاه.

ولذا كان « أَشَدُّ الناسِ بلاءً الأنبياء ».

« وإذا أحب الله عبداً ابتلاه ».

وهذه النفوس تمتحن بأقوى المؤثرات التي قد تميل بالإنسان عن الحق والعدل.

مؤثرات بما يصيبهم في ذات أنفسهم، ومؤثرات بما يقع من حولهم.

وهنا يكون التميز بين الناس. وهو ثمرة الابتلاء والامتحان بالشدائد والبأساء والضراء، وبالخير والشر.

﴿ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾.[1]

وتلك سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول: ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

(1) الأنبياء: ٣٥.

عَلَىٰ مَآ أَنتُمۡ عَلَيۡهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِۗ ﴾.[1]

مع مداولة الأيام وتبدل الأحوال يمكن أن يعرف الإنسان عن نفسه إن كان ـ بصدقٍ وحقٍّ ـ راضياً عن ربِّه، أم أنَّ رِضَاه مرتبط بحالٍ بعينها، إنْ تبدَّلَتْ تبدَّلَ معها رِضاه.

﴿ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ ﴾.[2]

وهذه المؤثرات ممتدة مع الإنسان حتى يلقى ربَّه.

فثباته مع العدل والحق هو دلالة رضاه عن ربِّه.

روى مسلمٌ عَنْ خَالِدِ بْنِ عُمَيْرٍ الْعَدَوِيِّ قَالَ: «خَطَبَنَا عُتْبَةُ بْنُ غَزْوَانَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ:

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ، وَوَلَّتْ حَذَّاءَ

وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ كَصُبَابَةِ الإِنَاءِ يَتَصَابُّهَا صَاحِبُهَا

وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا، فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ

فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِى فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا.

وَوَاللَّهِ لَتُمْلأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ ؟!

وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ

---

(1) آل عمران: ١٧٩.

(2) الحج: ١١.

سَنَةً.

وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ.

وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا.

فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً، فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِكٍ، فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا.

فَمَا أَصْبَحَ الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ.

وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا ».[1]

راوي هذا الحديث "خالد بن عمر العدوي"من كبار التابعين.

و"عتبة بن غزوان"صحابي جليل، قديم الإسلام، هاجر إلى الحبشة، وكان من الرُّماة المذكورين.

روي له عن رسول الله ﷺ أربعة أحاديث، هذا أشهرها، وليس في الكتب الستة سواه.

وكان أميراً على "البَصْرة"وقد بناها "عتبةُ بن غزوان"في خلافة عمر ـ رضي الله عنه ـ سَنَةَ سبع عشرة.

خطب "عتبةُ بن غزوان"هذه الخطبة التي تُرينا ما كان عليه صحابةُ رسول الله ﷺ مع نبيِّهم في تبدل الأحوال.

بل تُرينا جوانبَ ثلاثةٍ، يجب تدبرها والاسترشاد بما جاء فيها:

* الأول: النظرة إلى الحياة نظرة كاملة شاملة، لا تقف عند الدنيا

(1) مسلم: كتاب الزهد والرقائق.

وحدها، بل تعرف حدودَها، وتأخذ خَيْرَ ما فيها.

* الثاني: وصف الجنة والنار، وما يترتب على ذلك في دُنيا الناس.

* الثالث: ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته، وعُتبةُ واحدٌ منهم.

١ـ أما الجانب الأوَّل: فَبَعْدَ أن بدأ عتبةُ ـ رضي الله عنه ـ خُطبته مُقتدياً برسول الله ﷺ في حَمْدِ الله، والثَّناء عليه، والإتيان بقوله "أمَّا بعد" تحدَّثَ عن الدنيا فقال: « إِنَّ الدُّنْيَا قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ » أي: بانقطاعٍ وفناء.

وكُلُّ شيء فيها دالٌ على تقضِّيها، سواء بالنسبة لأَجَلِ الأفراد، وما أزهده، أو أَجَلِ الدنيا، وما أَقَلَّه.

﴿ قَٰلَ كَمۡ لَبِثۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖ فَسۡـَٔلِ ٱلۡعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ لَّوۡ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١١٤﴾ ﴾.[1]

وجميعُ الألفاظ التي استعملها عتبةُ ـ رضي الله عنه ـ تدُلُّ على حقيقة حال الدنيا:

« قَدْ آذَنَتْ بِصُرْمٍ » أي: بسرعة انقطاع وفناء.

« وَوَلَّتْ حَذَّاءَ » أي: سريعة.

« وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلاَّ صُبَابَةٌ » أي: بقيَّة يسيرة.

فإن للدنيا أجلاً. وما أسرع أن تمضي الأيامُ، وتنقضي الآجال.

---

(1) المؤمنون: ١١٢ – ١١٤.

وإذا كان « القبرُ أوَّلَ منازلِ الآخرة »[1]

فما أسرع الوصول إليه، والمبيت فيه.

ولا يعلم أحدٌ ساعةَ رحيله من الدنيا..

كما لم يعلم ـ من قبلُ ـ ساعةَ مجيئه.

﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾.[2]

وفي خفاءِ أمر الأَجَلِ على الناس حَثٌّ على اتِّخاذ الأُهبة، واستباق الخيرات، والمبادرة بالأعمال الصالحات.

﴿ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ﴾.[3]

روى الترمذيُّ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ـ رضي الله عنه ـ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: « بَادِرُوا [٤] بِالأَعْمَالِ سَبْعًا، هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلاَّ فَقْرًا مُنْسِيًا [٥]، أَوْ غِنىً مُطْغِيًا [٦]، أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا [٧]، أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا [٨]، أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا [٩]،

---

(1) رواه الترمذي عن عثمان ـ رضي الله عنه ـ.

(2) لقمان: ٣٤.

(3) البقرة: ١٤٨.

(٤) أي سابقوا وقوعَ الفِتَن بالاشتغال بالأعمال الصالحة.

(٥) أي نسيتموه، ثم يأتيكم فجأة.

(٦) أي للإنسان.

(٧) أي للمِزاج، مُشغِلاً للحواس.

(٨) الفَنَدُ في الأصل: الكذب، ثم قالوا للشيخ إذا هَرَم: قد أفند؛ لأنه يتكلَّمُ بالمُحَرَّف من الكلام عن سنن الصحة.

(٩) أي سريعاً يأتي فجأة بحيث لا يقدر معه على التوبة.

أَوْ الدَّجَّالَ [1] فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ، أَوْ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ».[2]

ما أسرع ما يقع من أمرٍ يَحُولُ بين الإنسان وبين فِعْلِ الخيرات، فَلْيُسَارع فإنَّ الانتقال واقعٌ لا محالةَ في أيِّ صورةٍ من الصور، ولذا قال عتبةُ ـ رضي الله عنه ـ: « وَإِنَّكُمْ مُنْتَقِلُونَ مِنْهَا إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا ».

تلك هي دارُ الإقامة، وذاك هو الوطنُ الأصليُّ الحقيقيُّ « إِلَى دَارٍ لاَ زَوَالَ لَهَا ».

كَمْ يُعاني المسافرُ الغريبُ للوصول إلى وطنه ؟

وَكَمْ يُكابدُ من المصاعب والمتاعبِ لكي يصلَ إليه ؟

لكنَّه عندما يَصِل ـ وهو واصِلٌ لا محالةَ ـ يشعر بالطمأنينة والمؤانسة من الأهل والصَّحْبِ.

وعند وُصوله سَالماً يذهبُ كُلُّ تَعَبٍ، وكُلُّ أَلَمٍ قد انقضى.

بَيْدَ أنَّ ذلك متوقِّفٌ على أن يخرج الإنسانُ من الدنيا بخيرِ ما فيها، وخَيْرُ ما فيها تقوى الله وعَمَل صالح. وخيرُ الزَّادِ التَّقْوَى.

﴿ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ﴾.[3]

وهي كلمةٌ جامعةٌ مُحقِّقة لِطِيبِ الدُّنيا ونعيمِ الآخرة.

« فَانْتَقِلُوا بِخَيْرِ مَا بِحَضْرَتِكُمْ ».

جَعَلَ الخيرَ المتمكن منه في الحياة الدنيا كالحاضر المحتاج إليه في

---

(١) أي خروج الدجال.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(3) البقرة: ١٩٧.

المآل.

فصاحبُ الحَزْمِ يدَّخِرُ منه حاجتَه؛ لينتفع به عند احتياجه إليه، كما قال ابنُ عمر ـ رضي الله عنهما ـ: « وَخُذْ مِنْ صِحَّتِكَ لِمَرَضِكَ، وَمِنْ حَيَاتِكَ لِمَوْتِكَ ».[1]

٢ـ يأتي الجانبُ الثاني: وهو وَصْفُ النار والجنة، مُقَدِّماً الترهيبَ على الترغيب؛ لتتخلّى النفسُ عن آثامها وذنوبها أوَّلاً، ثم تتحلّى بفضائِلها وصالِحِ أعمالِهَا.

فقال ـ رضي الله عنه ـ: « فَإِنَّهُ قَدْ ذُكِرَ » ببناء الفعل للمجهول، وحَذْفِ الفاعل؛ للعِلم به، وهو الرسولُ ﷺ.

وقد ذكر علماءُ الأثر أنَّ من الموقوف لفظاً المرفوع حُكماً قولُ الصحابي: « أُمِرْنَا بكذا » أو « نُهِينَا عن كذا » بالبناء للمجهول فيهما.

« قَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ الْحَجَرَ يُلْقَى مِنْ شَفَةِ جَهَنَّمَ، فَيَهْوِى فِيهَا سَبْعِينَ عَامًا لاَ يُدْرِكُ لَهَا قَعْرًا. وَوَاللَّهِ لَتُمْلأَنَّ، أَفَعَجِبْتُمْ ؟! ».

« وَوَاللَّهِ لَتُمْلأَنَّ » أكَّدَ بالقَسَمِ وباللام؛ دَفْعاً لِمَا قد يقصر العقلُ عن إدراكه، من مِلءِ ما كان هذا عُمْقُه، فَمَا بَالُكَ بِعَرْضِهِ وَكَمَالِ سَعَتِه ؟!!

وإذا كان كذلك، وتمتلئ عن آخرها. فاحذروا من مخالفة الله ـ سبحانه ـ وابتعدوا عن معصيته؛ حتى تنالوا الفَوْزَ بالبُعْدِ عنها.

---

(1) البخاري: كتاب الرقائق.

﴿ فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَ ﴾ [1]

« أَفَعَجِبْتُمْ ؟! ».

والتقدير: أَسَمِعْتُم فَعَجِبْتُم. فالفاءُ عاطفة على مُقَدَّر.

ولَمَّا ذَكَرَ لهم ما يُحقِقُ الرَّهبةَ والخوفَ، أَخَذَ بهم في ميدان الأمل والرجاء؛ لتحيا النفسُ بين الأمريْن في استقامة واعتدال.

فقال ـ رضي الله عنه ـ: « وَلَقَدْ ذُكِرَ لَنَا أَنَّ مَا بَيْنَ مِصْرَاعَيْنِ مِنْ مَصَارِيعِ الْجَنَّةِ مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا يَوْمٌ وَهُوَ كَظِيظٌ مِنَ الزِّحَامِ ».

الْمِصْرَاعَيْنِ: بكَسْرِ الميم: تثنية "مِصْرَاع"، ومِصْرَاعُ البابِ: الشطر، وهما مِصْرَاعَان من مصاريع الجنة، ما بينهما مسيرة أربعين عاماً.

« وَلَيَأْتِيَنَّ عَلَيْهَا » أي: الجنة، « وَهُوَ » أي: الْمِصْرَاع، وَمَحِلّه من الباب « كَظِيظٌ » أي: ممتلئ من الزحام، و « الزِّحَامِ » مصدر زَاحَمَهُ، أي: دَافَعَهُ. وهذا يدل على كثرة الدَّاخلين فيها بعُموم رحمة الله ومزيد فضله.

﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [2]

---

(1) آل عمران: ١٨٥.

(2) آل عمران: ١٣٣.

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ﴾.[1]

إن الطريق إلى الجنة قد بَيَّنَهُ الله ـ عَزَّ وَجَلَّ ـ وهو طريق لا ينعزل عن الدنيا، ولا يبتعد عنها. بل يَمُرُّ فيها، وَيَتَّصِلُ بكافَّةِ شئونها.

فالدنيا تُرْبَةٌ ينبت فيها عَمَلُ الإنسان ويُختَبَر سَعْيُه. وهي زائلة لا محالة، وعند الله يجد الإنسانُ نتيجةَ غَرْسِهِ وَثَمَرَةَ سَعْيه.

ومهما يكُن فالله ليس بزائلٍ.. ويجني الفتى من بَعْدُ مَا هُو غَارس.

٣ـ **ولننظر إلى الجانب الثالث** من خُطبة ابنِ غَزوان ـ رضي الله عنه ـ: وهو ما كان عليه الرسولُ ﷺ وصحابتُه، وعتبةُ واحدٌ منهم.

يقولُ ـ رضي الله عنه ـ: « وَلَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا ».

« مَا لَنَا طَعَامٌ إِلاَّ وَرَقُ الشَّجَرِ » أي: فأكلناه إلى أن قَرِحَتْ أشداقُنا. و"الشِّدْقُ" جانبُ الفَمِّ، ويُجْمَعُ على "أشداق، وشدوق".

« قَرِحَتْ » أي: صار فيها قُروح. قَرْحٌ بفتح القاف وَضَمُّها: الجرح.

هذا طعامُهم، فما اللباس ؟

قال ـ رضي الله عنه ـ: « فَالْتَقَطْتُ بُرْدَةً » أي: عثرتُ عليها من غير قصدٍ وَطَلَب. وهي شَمْلَةٌ مُخَطَّطة، وقيل: كِساء مُربَّع.

« فَشَقَقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ مَالِك » وهو سعد بن أبي وَقَّاص، أحدُ العشرة المبشرين بالجنة.

---

(1) الأنفال: ٤٢.

« فَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا ، وَاتَّزَرَ سَعْدٌ بِنِصْفِهَا ».

بَادَرَ بِشَقِّهَا عَقِبَ التقاطِها إمَّا لِعلمه بِرِضَا صاحبها ، وإمَّا بإعراضه عنها؛ لتمزُّقها.

قال: « فَمَا أَصْبَحَ - أي صار - الْيَوْمَ مِنَّا أَحَدٌ إِلاَّ أَصْبَحَ أَمِيرًا عَلَى مِصْرٍ مِنَ الأَمْصَارِ ».

يشير بذلك إلى اتساع الحال بعد ضيقه.

الحالُ مع العُسْرِ: هو الرِّضا والقناعة.. واتزان النفس بفضائلها وصفاتها.

والحالُ مع اليُسر: تُحدده الكلمةُ الأخيرة الْمُعَبِّرة أصدقَ تعبير عمَّا يدورُ في نفوسهم « وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا وَعِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا ».

هذا حالُ صحابةِ رسول الله ﷺ في العُسْر واليُسْر.

معرفتهم لله في الحالَيْن تُسدد خُطاهم.

وهم - بهذه المعرفة - أعزَّاءُ مع العُسْر، كُرماءُ مع اليُسْر.

« وَإِنِّي أَعُوذُ بِاللَّهِ - أي أعتصمُ به - أَنْ أَكُونَ فِي نَفْسِي عَظِيمًا - بأن تحدثني نفسي بذلك، أو يوهمني الشيطانُ، فأفقد تواضعي لربي، وشُكري لخالقي.

« وأعوذُ بالله - أيضاً - أن أكون عِنْدَ اللَّهِ صَغِيرًا » لا يُقْبِلُ عليَّ بالفضل والإحسان، ولا ينصبُ لعملي وزنٌ إذا نُصِبَ الميزان.

قال ﷺ: « إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ الْعَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لاَ يَزِنُ عِنْدَ

اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ. وَقَالَ: اقْرَءُوا ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ [1] ». [2]

هذا ما يستعيذُ منه الصحابيُّ الجليلُ "عتبةُ ابنُ غزوان".

أَن يكونَ في نفسه عظيماً، وعندَ الله صغيراً !

إنهم يحرصون على مكانتهم عند الله. ولا تكون لهم مكانة حين يرون أنفسَهم قد صاروا عظماءَ، وهُم عند الله صِغار.

لِذَا نراهم يُعلنون رضَاهُم عن الله في الحَالَيْن، دون تبدُّل أو تغيُّر.

في العُسْر، بالرَّجاء في الله، والصَّبْر.

وفي اليُسر، بالتواضع والشكر.

فلا يفقدون رَضَاهم عن الله في أيِّ حال.

وهكذا يكون حال صاحب الصِّدق والإيمان واليقين.

لا يسكت عن ذِكْرِ ربِّه وإعلانِ رحمته وفضله.

إنْ أصابته مصيبةٌ قال: ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ ﴾ [3]

وإنْ أتاه شيءٌ مِن فَضْلِ ربِّه، عَرَفَ حَقَّه، فقال: ﴿ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾ ﴾. [4]

وذاك هو عَيْنُ الرِّضا عن الله، وثمرةُ العبادة والدُّعاءِ.

---

(1) الكهف: ١٠٥.

(2) مسلم: باب صفة القيامة والجنة والنار.

(3) البقرة: ١٥٦.

(4) النمل: ٤٠.

وبه يتحققُ للإنسان سِلْمُهُ وَأَمْنُه.

في ذاتِ نفسِه: بالطمأنينة بذِكْرِ ربِّه.

وفي مجتمعه: بالعدل في إعطاء كُلِّ ذي حَقٍّ حقَّه.

فلا يشغله عاجلٌ عن آجل، ولا تُلهيه لذةٌ ذاهبة عن عاقبتها في الآخرة.

وعندئذ يكون قَوْلُ المؤمن « رَضِيتُ باللَّهِ رَبًّا، وَبالإِسْلاَمِ ديناً، وَبمُحَمَّدٍ نَبيًّا ورسولاً » قَوْلاً تُصدِّقه الحقيقةُ والواقعُ؛ إذْ « ليس الإيمانُ بالتمني ولا بالتحلِّي، ولكنْ مَا وَقَرَ في القلب وَصَدَّقه العملُ ».[1]

فمَن أعلنَ الرِّضا عن الله لابُدَّ أن يرى رِضَاه في مُعتَرَكِ الحياة.

هل يُؤثِرُ هواه ؟ أَمْ يُؤثِرُ الحقَّ والعدلَ في معاملته؛ ابتغاء مرضاتِ الله ؟

ويكون ذلك في كُلِّ شأن صَغُرَ أَوْ كَبُرَ؛ فإنَّ موازين الحق والعدل لَنْ يفلت منها في حسابٍ أَوْ جزاء.

﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾[2]

إنَّ مَن رَضِيَ عن ربِّه لا يظلمُ غيرَه شيئاً وإنْ كان يسيراً؛ لأنَّ ذلك يجلب سَخَطَ الله وَغَضَبَهُ.

وَمَن ظَلَمَ غيرَه فَقَدْ ظلم نفسَه، وأَساءَ إليها من حيث يظُنُّ أنه

---

(1) قول الحسن البصري ـ رحمه الله تعالى ـ.

(2) الأنبياء: ٤٧.

يُحسنُ إليها.

ولن يفلتَ ظالمٌ من جزاءٍ وَإنْ استُدْرِجَ أَوْ أُمْلِيَ له.

ففي الحديث المتفق عليه، عن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال:

قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ، حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. قَالَ ثُمَّ قَرَأَ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾[1] ».[2]

فالرضا عن الله أصلٌ في إحقاقِ الحقِّ وإقامةِ العدل.

وإعلانُ **الرِّضا** عهدٌ وميثاق لا يُنْقَض ولا يُجْحَد.

ونَقْضُ الميثاق ـ في كُلِّ حَالٍ ـ فسادٌ ودَمَارٌ، ولَعْنَةٌ وخُسران.

﴿ وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ﴾.[3]

والوفاءُ بالعهد دَلالَةُ رُشْدٍ وتبصرة.

﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ ﴾.[4]

---

(1) هود: ١٠٢.

(2) البخاري: كتاب التفسير.

(3) الرعد: ٢٥.

(4) الرعد: ١٩، ٢٠.

وأخطر ما يقعُ في حياة الناس نِسْيَانُ ما أَخَذَ الله عليهم من عَهْدٍ وميثاق.

ومَا أخذه عليهم من عَهْدٍ قد شَهِدوا عليه بفِطرتهم، فلا مَنَاصَ من حسابٍ وجزاءٍ؛ فالحقُّ والعدلُ لَيْسَا بعيداً عن فطرة الخَلْق وحكمةِ الوجود، ولكنَّ الذي يُبعد الناسَ عن الحق والعدل في معاملاتهم غفلةٌ سَادِرَةٌ وطغيان.

مع أنَّ الحقَّ قائمٌ في أنفسهم، ولكنهم لا يستبصرون.

والعدلُ شاملٌ في فطرة الكون من حولِهم، ولكنَّ كثيراً منهم غافلون.

فَمَا طالبهم الله به من الوفاء للحق والعدل - بإرادتهم في سَعيهم وعملهم - مُتَحَقِّقٌ في فطرتهم التي فَطَرَ الله الناسَ عليها.

ونجاةُ الإنسان وفوزُه يتحقق باتِّساق إرادته مع فطرته، وفطرةُ كُلِّ شيء تسبيحٌ بحمد الله، وإنْ لَمْ نَفْقَه تسبيحَ كثيرٍ من الأشياء.

﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (1)

نعم لا نَفْقَهُ تسبيحَ كثيرٍ من الأشياء. ولكنْ لا تغيبُ عنَّا دَلالتُها وتبصرتها وتذكرتها، إنْ نَحْنُ أَنَبْنَا إلى الله، واهتدينا بهُداه، وأَعلَنَّا رِضانَا عن الله صِدْقاً وعبادةً، وسُلوكاً وعملاً.

---

(1) الإسراء: ٤٤.

فإننا - بذلك - نتجاوَبُ مع فطرتنا، ومع كل شيء؛ تعظيماً وتسبيحاً وحَمْداً.

فنُحسنُ بذلك لأنفسنا ولا نُسيء، ونصل ما أمر اللهُ به أن يُوصَلَ ولا نَنْقُض عَهْدَ الله من بعد ميثاقه.

فيكون إعلاننُا **بالرضا** عن ربِّنا وإسلامِنا ونَبيِّنا، إعلان عبادةٍ خالصةٍ، تُرَى ثمارُها في معاملتنا وأخلاقنا، وإعلان دعوة إلى الله تُرَى في الناس آثارُها ونتائجُها.

وكُلُّ ذلك يستوجب فِقْهَ ما أنزلَ الله من كتاب، واتِّباع ما أَرْسَلَ من رسول..

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾ ﴾.(1)

* * *

(1) آل عمران: ٣١، ٣٢.